الموازين والأرض
يسرى الأيوبي

عندما نزلت البعثة الفضائية العلمية على المريخ لم يدر بخلـد أحـد مـن أفرادها أن يجدوا بين الأنقاض التي بدت لأول وهلة أنها تلال طبيعية آثار حيـاة سابقة على وجهه. وتملكت سكان الأرض الدهشة، وبهـرت أنفاسـهم، وأخـذوا يتابعون أنباء الكشوف بلهفة والعلماء يلاصقون مزق الصورة التي اندثرت لعـالم مزدهر ولشعب ما كاد يبلغ من الحضارة شأواً حتـى أبادتـه الانقـسامات بـين صفوفه.

كانت محطات التلفزيون العالمية تحمل على أجنحة قوس قزحيـة لوحـات مهيبة رائعة لعالم المريخ الغامض وتعليق العلماء عليها. وفي كل منـزل علقـت العيون على الشاشات، ووجفت القلوب برعشة خفية والناس يتساءلون عن المأساة المروعة التي ضربت المريخ في يوم من الأيام.

شغلت هذه الحضارة اللاأرضية بالقدر نفسه بال الإنسان العادي كما الخبير المختص والفيلسوف. وعادت الى صدارة الوعي الأسئلة الكبـرى التـي عـذبت جنسنا البشري منذ فجر تاريخنا حتى هذه اللحظة دون أن نجد لها جوابـاً شـافياً. ومع أن الاكتشافات توالت، وأخذت المعلومات تتراكم لتنير جوانب مظلمـة مـن الحضارة النائية، ونجح العلماء في تطويع الأبجديات الغريبة فتدفق سيل حي مـن الصور والأفكار عابراً المسافات الكونية والزمان الأبدي الصارم، إلاّ أن الحيـرة ازدادت ولم تهدأ حدة الجدل.

وفي قصتي هذه لن أعيد المناظرات الأرضية عن ظروف نشأة حـضارة المريخ وازدهارها ثم اندثارها، ولكنني سأستعرض صوراً عن هذا الكوكب كمـا رآها أناسه بأعينهم ووصفوها في آدابهم المتأخرة التي سبقت الكارثة. وقد جمـع مؤرخونا هذه الآداب وصنفوها وأطلقوا عليها مجتمعة اسما مثيـرا للخيـال هـو "أسطورة المحل العظيم". وأترك للقارئ مهمة التأمـل والاسـتنتاج أو مجـرد أن يسافر من أرضنا ويعيش اللحظات الأخيرة على "أرض القمرين والشمس الذهبية" كما لقب أبناء المريخ كوكبهم ذات يوم.

في كتابة مبكرة من الفترة التي نتحدث عنها كتب كاتب مجهول:

"وقع الناس في عبادة آلهة "الموازين" وتخلّوا عن تقـديس "الأم العظيمـة" منجبة الخصب والحياة. ترى أي مصير ينتظرنا..؟"

ويتابع فيصف كيف توالت آلهة على الحكم، وكلما أمسك إله بناصيته جـاء بميزانه وأوزانه فمن زاد وزنه أو نقص عن المعيار المثالي طرد من عمله وأودع السجن وصودرت أملاكه ولعن هو وذريته، ولعن كل مـن آوى فـرداً مـنهم أو أطعمه، فكانوا يهيمون على وجوههم يقتاتون حشيش الأرض وتلفحهـم الريـاح، فيموت منهم من يموت ويقاوم من يقاوم، أما العمالقة والأقـزام فكانـت تفـصل رؤوسهم عن أجسادهم حتى انقرضوا وزالوا وانقرضت وزالت ذراريهـم. ولـم يحزن الناس كثيرا لأنهم بطبعهم يحبون المساواة والعدل.. ويغدو الميزان صارماً أكثر حتى أن زيادة قيراط في وزن المواطن أو نقصه يـصبح سـبباً للملاحقـة والتعذيب. وضج الناس، وشحن الجو بالضغينة والتآمر. وفي ليلة حالكة تغفل فيها عين صاحب الميزان عن ميزانه، كان يسرق منه ويكبل هو بالحديد ويلقـى فـي الفضاء وينتصب إله جديد وميزان جديد. مرة يكون ميزاناً للوزن وأخرى للطول فمن زاد طوله أو نقص عن الطول المثالي لقي ما لقيه المتخلّـف عـن الحجـم المثالي، وفي غيرها لون البشرة أو لون العيون حتى أضحى كل فرد من سـكان المريخ مهدداً في حياته قلقاً على مصيره. وفقد كل واحد الثقة بأخيه وأخذ يلمحـه بريبة واتهام، وصار القطع والوصم والإدانة والتعذيب شعار كل إله يحمل ميزاناً؛ وكثيرا ماانقلب الصديق عدواً، ولا ينقلب العدو صديقاً!..

وتنتهي المخطوطة بهذه العبارات الشعرية:

"يا أرض القمرين والشمس الذهبية

إن جداول الحب تنضب

وسيول الكره تجرف التربة

إلى البحر

ياأرض القمرين والشمس الذهبية

إن أبناءك يغرقون

في لجة الجنون

وكلما زرعت الأمهات شجرة

اقتلعت

أو قصفت

وهي غضة

لم تفرع ولم تثمر."

وعلى غلاف هذه المخطوطة كتبت العبارات التالية ممهورة بختم رسمي:

"كتابة تحريضية خطرة لايسمح تداولها، تحفظ في مكتبة المعبد.

ملاحظة: صلب كاتبها بعد أن اقتلع لسانه وسملت عيناه."

وفي عمل شعري ضخم يعرف باسم ملحمة الطـائر النـاري أو الملحمـة الناقصة نقرأ هذه الأبيات:

"الأم العظيمة تتأوه

الأم العظيمة تتأوه في سجنها المظلم

في بئر في باطن الأرض

الأم العظيمة تذرف الدمع السخين

فتنبت الزهيرات البنفسجية

تحت شجرة الحياة الخالدة

مع إطلالة كل ربيع شاحب عليل

لاعيد للشباب فيه

ولا للحب."

ويصنف خبراؤنا هذه الملحمة الـشعرية مـع أدب الملاحـم الـشعبية أو الأساطير الدينية التي راجت في الحقبة التي سبقت الكارثة. ورغم تحريم تـداولها ومصادرة نسخها المكتوبة وإتلافها، فقد كان الناس يتنـاقلون أشـعارها شـفهياً. ولحسن الحظ سلمت بعض النسخ، ولعلها دونت في وقت متأخر عنـدما تراخـت قبضة السلطات وعمت الفوضى في أواخر عهد هذه الحضارة البائدة..

ونتابع الفصول الأخيرة من الملحمة فنقـرأ كيـف رددت الأرض صـدى تأوهات الأم العظيمة، فسمعتها شجرة الحياة الخالدة، وقالت للطائر الناري الـذي يتخذ من فروعها موطناً:

"صه. اسمع أيها الطائر الناري

يا ذا الصوت الحزين الشجي

أنت يا من تغرد فيشتعل صوتك

بالصدق والحكمة يشتعل صوتك

كما تشتعل النار المقدسة في ظلام الليل."

فيصمت الطائر الناري ويصغي الى شجرة الحياة الخالدة التي حملته رسالة الى الحاكم:

"قل له:

إن شجرة الحياة الخالدة

تعرف أنين السجين الذي كبلَ

لأنه خلق حراً

كما أرادته الطبيعة التي

تأبى خلق الكائنات المتماثلة.

قل له:

ياصاحب السلطان

بالقسط أقم الميزان

وضع حداً للمهزلةْ

التي تغرق أرضنا

بالفوضى والتخريب.

قل له:

المحل لابد آتٍ

إن أنتم أعماكم حب الذاتِ

المحل يزحف على الطرقاتِ

المحل يجتاح البيوت والبساتين

المحل لكم بالمرصاد

المحل يرقبكم بعيون آثمة

لاتعرف الرحمة

وبنهم عاتٍ

يفتح شدقه الرهيب

ليبتلع الأطفال

والشباب والشيب

والنساء والرجال

فويل للعمين

إن فاجأتهم ساعة اليقين

كانوا من الهالكين

وما ينجيهم حينئذ؟

حمقاء الموازين!

قل له:

لم يعد من أحد يزرع على الأرض شجرة

وفي أعيادي لم يجد حملة الشعلة المقدسة

ما يكفي من فروع مزهرة

ليسيروا في المواكب

قل له:

عرفنا الصوم فمتى نفطر؟

عرفنا الحزن فمتى نفرح؟

عرفنا الليل فمتى تشمس؟

عرفنا الشتاء فمتى يأتي الربيع؟

متى يعود الخصب وتزهر العبقرية؟

عبقرية الأرض الندية

التي تعرف جمال العطاء.

قل له:

لماذا يخمد الحب الذي يروي؟

وتغيض المحبة التي تسع الجميع؟

كيف تكبر الخلافات الصغيرة

فتحجب كما الظلام في عز الظهيرة

خطراً يتربص بنا أجمعين؟

فنغفله

ونذكرها

بضغينة تملأ قلوبنا بالقروح

ولا نجد وئاما يبلسم الجروح.

قل له:

أ بالأغلال تكبلون الأم العظيمة؟

قل له :

المحل لو جاء قتلنا غافلين

لأننا من الأرض نغتذي

لا من الموازين."

ونقر الطائر الناري نافذة صاحب الميزان بعد موهن مـن الليـل فأفـاق مذعوراً.. من ذا يجرؤ على اقتحام الأسوار اليـه والحراسـة مـشددة والعيـون يقظة؟..

وابتسم إذ رأى الطائر الصغير. كم هي مرهقة أعصابه حتى ليصاب برعدة لكل نأمة!.

"- غن يا طائر النار وهدهد أحلامي

فمنذ سنين

كفت أذناي عن سماع شدوك الحزين!

- لم آت لأغني

بل أحمل اليك رسالة

من شجرة الحياة قاهرة السنين.

- ماذا تقول؟

- تقول الشجرة الخالدة أنها

تعرف أنين السجين الذي كبلَ

لأنه خلق حراً

كما أرادته الطبيعة التي

تأبى خلق الكائنات المتماثلة."

تكلّم الطائر بأمانة، لم ينقص ولم يزد حرفاً، فأجاب صاحب الميزان:

"- قل لها:

أيتها العجوز الحكيمة

أحلّفك، قولي الحقيقة

هل من أحد يوقّرنا

لو نجح وأقام الميزان؟

قل لها :

أيتها الشجرة العتيقة

لعلك تعلمين

ماذا يحلّ بنا

لو اختلطت الموازين.

تختلّ الأكوان

ويضمحل العالم

ويهلك ما على الأرض

من نبات وحيوان وإنسان.

قل لها:

أقدس من الأرض الميزان!

قل لها:

أيتها العجوز الحكيمة

عندما يستتب ميزاننا

تاجاً نعقده

على جبين الأم العظيمة."

وذهب الطائر الناري بهذا الجواب الى شجرة الحياة القديمة قـدم الـزمن، فأطرقت وهي تستعيد في مخيلتها تجارب الماضي المريرة، وتستلهم الحكمة منها علّها تجد طريق الخلاص في الحاضر فلا تفلح، فلم يمر بأرض القمرين والشمس الذهبية من قبل عهد يشبه العهد الذي تعيشه الآن، ولم يكن الخطر في يـوم مـن الأيام أقرب اليها منه الآن.

"طريق خطيرة

هذه التي فيها تندفعون

أبناء الأم العظيمة

ويحكم ألا ترون؟

أنتم أبناؤها جميعا

فان استبدت بواحدكم من الآخر الغيرة

فإن قلبها يبقى قلب الأم

يحبكم جميعا

ويحزن لكم جميعا.

أثكلتم الأرض

وأثخنتم فيها جراحا

حتى لتتمنى

لو عقمت ولم تلدكم

يقتل بعضكم بعضا

وقد أودى الغرور بكم

فعلام تحتربون؟

عودوا اليها

واركعوا عند قدميها

وأحيوا أعيادها

لعلكم تنجون.

فإن عجزتم

أن يؤلف الحب للأم العظيمة بين قلوبكم

فليؤلف الخوف من الفناء بينكم

أما إذا عن هذا أيضا عجزتم

فلينحلّ نسيج هذا الكوكب

لتتهاوى أعمدته

ولتفتح براكينه أشداقها

وتحرق بحممها حجره

ويابسه وأخضره

وإنسانه ودابته وطائره.

ولتعقم أرحام من عليه

ويفنى كل حي فيه."

وجميع نسخ الملحمة المكتشفة حتى الآن تتوقف فجأة دون نهايـة، لـذلك دعيت بالملحمة الناقصة، وفي بعض النسخ ترد النبوءة الغريبـة التـي طـارت شهرتها بعيداً بين أبناء جلدتنا:

"إنسان جديد

يرث الأرض في مآتي الزمان

تبعثه السماء من بعيد

ويعيد عهداً طواه النسيان

سيكون أفضل

ويكون أحكم

ويكون أكثر تواضعاً منكم."

ولعل الغرور الذي هيأ لنا أن النبوءة تعنينا نحن هو سبب شهرتها بيننا!..

لايدري أحد بعد ما حدث بالضبط على سطح المريخ، والتكهنـات كثيـرة ومتضاربة. ولكن إذا حاولنا أن نتمم اللوحة الأدبية الأسطورية مستندين الى المادة الأدبية التي بين أيدينا يمكننا أن نرسم صورة من عالم الرمز والخيال عما حصل ذات يوم على أرض القمرين والشمس الذهبية:

من المرجح أن أصحاب الموازين استمروا في لعبتهم، ولم يكف أحدهم عن الكيد للآخر، وجاء يوم لم يحسب له أحد حساباً.. المحل الكبير! لم يعرف سـكان المريخ في حياتهم ما يماثله.. اجتاح سطح الكوكب كالطوفان فجعل كل خـضرة هشيماً.. وكان في مشروع كل صاحب ميزان أن يتصدى للكارثة لكنه لـم يفعـل لأنهم كانوا جميعاً مشغولين بخصوماتهم. وجفت السواقي والأنهار، ونفقت الطيور واستمر المحل ينظر الى المريخ بعين حاقدة تتـوهج بالنـار، وجـدت الأثـداء والضروع فهلك صغار الإنسان والحيوان، وأصابت الناس مجاعة هائلة، فأخـذوا يتهاوون فراداً وجماعات فاقدي الحياة.. وكـان أول مـن ضـمتهم الأرض فـي أحضانها الأطفال الصغار الذين نثلت لهم الأمهات الحفر ووارتهم دون أن تـبض عيونهن بالدمع، إذ أصاب المحل حتى مـآقيهن، وتـبعهم الـشيوخ ثـم النـساء والرجال.. ونال من بقي الذعر فانحلّ الانسجام وعم الخراب وتهاوت كـل القـيم وأنشب القوي براثنه بالضعيف وأكل لحمه ثم أصبح فريسة هو الآخر..

على جدران كهف عميق ضائع في جبال المريخ الجرداء كتابة نقشتها يـد مجهولة، تعرف هذه الكتابة في عالمنا بإسم شاعري جميل: "مـذكرات العاشـق الأخير". تقول الكتابة في مدخل الكهف:

"أنا العاشق الأخير على هذه الأرض الأبدية

أنا الناسك المتوحد رغم إرادته

من صومعة وحدتي وتعسي

أرقب كل يوم

غروب الشمس

خلف أفق الصحراء السرمدية."

وفي مكان آخر من الكهف خطّت الكتابة التالية وهي تتحدث عن حيـوانين مجنحين، أغلب الظن خرافيين، يدعيان المريخيين المجنحين، وتمثلهمـا التماثيـل والرسومات على جدران المعابد رابضين بوداعة عند قدمي الأم العظيمـة رغـم القوة الهائلة التي تنطق بها تعابير وجهيهما وعضلات جسديهما ومخالبهما:

"كانت شجرة الحياة الخالدة تستيقظ على فجيعة وتنام على أخرى، وأفاقـت ذات صباح لتشاهد المريخيين المجنحين حارسي الأم العظيمة قد نفقا أيضا، فعلمت أن منيتها دنت، إذ جفت الينابيع في باطن الأرض ولم تعد جذورها الناشـبة فـي ظلام التربة لترتوي بقطرة ماء.. وكانت ترى بعينيها وقلبها لايزال ينبض كيـف ينحسر نسغ الحياة عن أطرافها رويداً رويداً فتجف وتهش حتى بلغ منها موضـع القلب الذي خفق ألوف السنين فتمتمت:

- وداعاً أيتها الأم العظيمة.. اغفري لنا جميعاً ما اقترفناه في حقك وحـق أنفسنا..

ولكن الأم العظيمة أبت أن تغفر وهي تجيل بعينيها المتعبتين في الخـراب والدمار الشامل! لقد عقدوا لها أخيراً تاج الفناء !."

* * *